العرب
الأربعاء 2021/06/30
السنة 44 العدد 12105

فنان سوري يرسم أحلاما موغلة في الآتي

نزار الحطاب.. عازف بهلواني على وتر الألوان المُصغية للذاكرة والذكريات الحميمة

حلب من أكثر المدن التي تقترب من الحياة، فيها قوة هائلة تجعلها تنبض على الدوام، ترفض الاستكانة والموت مهما كانت فاجعتها كبيرة، ففيها من القلاع ما يكفي رفعها إلى سموات تحمي طموحاتها وحياتها ووحدة حالها. قلاع كثيرة لا تحصى ولا تعد، فيها صباح فخري، عمر بطش، صبري مدلل، فاتح المدرس، لؤي كيالي وأيضا نزار الحطاب الفنان التشكيلي السوري الذي اقترنت فرشاته وحياته بحلب.

غريب ملا زلال

دمشق – ينتمي التشكيلي نزار الحطاب المولود في حلب في العام 1969، إلى جوقة من الفنانين السوريين الذين ارتبطوا بالإنسان بقدر ارتباطهم بحلب، على غرار وحيد استانبولي وسعد يكن وعبدالرحمن مهنا وعنايت عطار وناصر نعسان آغا وإبراهيم حسون وأحمد برهو ووحيد مغاربة.. إلخ.

جوقة تجمع تراكمات حياة المعيش اليومي بشؤون حلب وشجونها، برغباتها واهتماماتها، بوجوهها وتفاصيلهم، ويرفعونها لئلا يهزّها الموت، لئلا تكون قربانا على مذابح الآلهة.

حتمية الوصول

الحطاب ينتمي إلى تلك الجوقة وتلك الذاكرة، فهو فنان مجتهد على طريقته الخاصة، صاحب تفاؤل مستقيم، تفاؤل يدعوه إلى التبشير بالسلام والجمال مهما كانت ظروف المكان محبطة ومتفاقمة، مهما كان الألم عميقا فهو يستخدم المفهوم الإنساني بالذات، يستخدمه بقوة وثبات وإخلاص كي يبقى المثل الأعلى مجسّدا في الإنسان غاية الفن والجمال.

نزار الحطاب يطرح في لوحاته ما يمكن أن نسميه الاقتران بحتمية الوصول في إطاره الاجتماعي الإنساني، الجمالي الإبداعي، وكلما كان التفاوت بينها غير واضح كلما كان الاقتران على أشدّه، وهذا لا يلحق الضرر بما هو واقعي بل يمنحه دلالات تجعل له معنى ومغزى، ودون أن تخضعه لنمطيات من الإمكان نسفها دون تدخلات قوى العالم الآخر، ودون أن يلغي ما هو ملموس الذي سيظهر عنده في أشكال واتجاهات يمكن اعتبارها تصوّرات لجمهرة كبيرة من معلومات ستسرد لاحقا بهدوء وتأمل كل مقاماتها.

والحطاب يتجنّب تقديم تصوير دقيق للحياة، بل يضع المفارقات الشتى نصب عينيه، المفارقات التي تبدو غريبة وغير اعتيادية ومرتبطة إلى حد ما باتجاهات استثنائية ستكون صدى لتلك الحياة.

لكن بلمسات مختلفة خاصة به، فلا حصر للحدود عنده، ولا سبيل لديه لمصالح الحياة اليومية، فكل المعطيات عنده تشير إلى استيقاظ الفعل المحسوس لديه بظروفه الانطلاقية، ساعيا لتطويره ليكون أكثر انسجاما، وأكثر تناغما مع المقدّمات الأولى ومع ما يحيط بها من تبعات ملائمة، فهو يحقّق نقلة نوعية في تجاوز الأوهام، وما سقوط الترهلات التي تشوّش الأذهان من جعبته إلاّ تعليلا نافعا من الوجهة المعرفية وكنتاج لسيرورة الفعل ذاته، وهو يتجلى في مصائر الحالات والصراعات الحياتية تجسيدا لها في تطوّر عوالمها الداخلية وما ترافقها من حركات هي بالمجمل تنبؤات لبعض المسائل التي لم يتم حلها أو كشفها بعد. وكل هذا يأتي مرتبطا بغايته الفكرية القائمة في ذهنه، وبمدى بسطها كموضوعات جمالية في الزمان وفي المكان مع الاختيار الصائب للبناء الفني. والحطاب لا يحتار في حل القضايا الفنية التي قد تبرز أمامه، ومن الطبيعي أن يلجأ إلى المخزون الذي راكمته التجارب الكثيرة، إضافة إلى طرحه لمضامين الظواهر المطروحة أمامه بصدق وتركيز، فالسمات الجوهرية لدوائره غير محددة، ورغم ذلك يدهشنا دائما بحلوله الفنية وما تقتضيها الضرورات الداخلية للموضوع المعالج في مجمل أعماله، وهذا من شأنه أن يرفع درجة حريته في مجالات بنائه الفني غير المحدودة.

الاشتغال على أفقين

الحطاب يسبر أعماق الحياة، ويلتفت للواقع المعاصر له حتى يبرز أمامه عالم كامل متنوّع إلى ما لا نهاية في ظواهره متناقض ومتحرّك ومتغيّر، وما وجوهه الحالمة في مزرعته الفنية إلا كسرا للنمذجة، وتعميما جماليا يخدم أغراض التصوير التاريخي الملموس لديه، فهو يفتّش ويختار من الوجوه ما تحمله من زبد الحياة بتياراتها العميقة، ويصوّر ما هو جوهري فيها، وإن كان يلاحظ عليها التغيير المتبدّل، فنرى فيها ما هو ثابت، راسخ، متكرّر، أو ما هو فردي أقرب إلى الأنموذج.

وفرز الخيوط المتقاطعة بين الحالتين مهمة في غاية الصعوبة والتعقيد، ويبذل الفنان الحلبي من الجهد الكثير حتى يمضي بهما نحو الخلاص، يمضي بهما وبما يترتب عليهما من شعور المتلقي بالبعد والنفور، أو بالقرب والتسلّل نحو سمات وجوهه المرتبطة بالمثير الجمالي من جهة تركيبه وغموضه وجدته، أو من جهة التقاطه للمعلومات ثم معالجتها والتعبير عنها حتى تنزاح بعيدا أو قريبا لتستثير الشعور على الرغم ممّا نعرفه من صعوبة القيام بمثل هذه المهمة. وقد تكون تلك المسافة المزاحة هي الحاملة للقيم المعرفية، وللتفضيلات الجمالية التي ستميّز تركيباته البصرية ومكوّناتها الأساسية في ضوء فهمنا الجديد لها، فهو لا يواجه الأشياء مكرها بل استجابة لتأملاته وما تحمله من حب، ولديه من الخبرة تراكمات تجعله أكثر تركيزا على خصائص الشكل بقيمها العليا التي تحمل جمالياتها بكل مظاهرها التي تستجيب للذائقة الفطرية بقدر استجابتها للذائقة المثقفة والمهذبة، وهذه ميزة لا يقدر على فعلها إلاّ القلة من الفنانين.

الحطاب من هؤلاء، ينتبه لعلامات الجمال بدقة ويعدّل من مرونة التفاصيل وأهميتها، وما لها من منح القدرة له حتى يكون قادرا على تغيير الزاوية الذهنية لوقفته.

الزاوية التي تجعل من عوالم التفاصيل بالكشف عن تصميمات جديدة ترتقي به نحو أمكنة مشبعة جماليا، مولعة بالحلم، الحلم الذي يعيه الفنان كمفهوم مُمتع يثير الانفعال من جانبه الإيجابي، منه يستلهم ما يحقّقه من إنجاز بنية العمل، بوصفها بنية معطاة مشتملة في الوقت نفسه على أفقين.

> نزار الحطاب صاحب تفاؤل مستقيم يدعوه إلى التبشير بالسلام والجمال مهما كانت ظروف المكان محبطة ومتفاقمة

أفق التوقّع المفترض في العمل، وأفق التجربة المفترض في المتلقي، بنية عليها ينهض سر وجوهه التي تكتوي باحتمالات رؤيوية مفتوحة على الحياة بموضوعاتها الكثيرة.

احتمالات مفتوحة دائما لمعايشة أبعاد جديدة ترتبط بشكل وثيق بذلك السرّ الذي يسكنه، ويسكن وجوهه بتنوّعها وإمكانياتها، وقدراتها في تجاور العلاقات المتخيلة التي لا تنفي أن جريانها يتمّ من لحظة شروعها في فتح مجراها وفق ما يؤمّن لها البقاء، إلى لحظة تشكّلها للمضي بصمتها وحلمها في ذاتها الموغلة في المجيء، فلا يبقى منها إلاّ ما يهفو إلى المكاشفة عن الانفتاح وعن لحظات التقاطع التي تعلن عنها الموجودات المنتشلة من هول وجوهها وتأملاتها، ومن هول مواجهاتها للغة حملت مقاماتها في ذاتها، وأصغت كثيرا لحلم الغياب.

رسوخ وثبات لا يعنيان التكرار

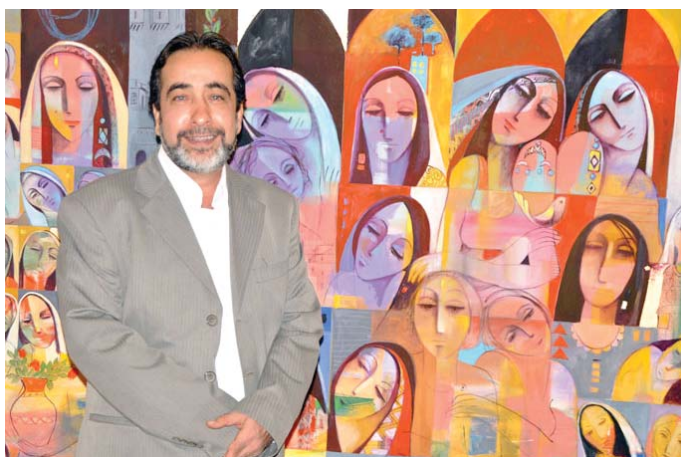

الإنسان غاية اللوحة وجوهرها

الفنان الحلبي يختار من الوجوه ما تحمله من زبد الحياة بتياراتها العميقة، ويصور ما هو جوهري وأصيل فيها

سمية البغدادي.. فنانة عراقية تستعيد بالفخار أمجاد السومريين

سمية البغدادي فنانة تشكيلية عراقية اختصّت في فن الخزف. عشقت الرسم وهي طفلة من خلال مشاركاتها في العديد من المعارض المدرسية، وعند التحاقها بمعهد الفنون الجميلة تعرّفت على فن الفخار والخزف، فأحبته ووجدته قريبا إلى نفسها، ومن هناك مارسته واحترفته، بل باتت تدرّسه للأطفال في سعي حثيث منها للحفاظ على هذا الفن العريق ومنعه من التلاشي والاندثار.

البصرة (العراق) – تصنع الفنانة التشكيلية العراقية سمية البغدادي بعناية ثورا مجنّحا (وهو أحد آلهة الآشوريين القدماء) في ورشتها بمدينة البصرة جنوب العراق، وتقول إنها تريد الحفاظ على فن الفخار الذي يعود تاريخه إلى آلاف السنين في بلدها.

وقرّرت البغدادي، وهي أستاذة فنون عراقية من مدينة البصرة، أن تنظّم دورات تعليمية للأطفال حول هذا الفن القديم، فهي ترى أنه لم يبق في البصرة حاليا سوى القليل جدا من فناني الخزف، ومن أجل الحفاظ على هذا التراث الذي يعود إلى آلاف السنين شرعت في تنظيم هذه الدورات.

وتعلّم الخبيرة العراقية في فنون الفخار طلبتها تراث العراق وثقافته القديمة عن طريق صناعة الأواني والمزهريات الملونة.

وأوضحت البغدادي أن "هذه الدورات مفيدة جدا بالنسبة إلى الأطفال، وفي الآن ذاته تساعدنا على إحياء تراث الفخار الذي يعاني من شبه اندثار في العراق، فنحن نعمل على إعادة إحيائه من جذوره عن طريق تعليم الأطفال الذين أحاول أن أبثّ فيهم حب هذا الفن حتى يكملوا مستقبلا هذه الرسالة".

وتعود صناعة الفخار –وهي حرفة شعبية– إلى الحضارة السومرية، كما بيّنت ذلك أعمال التنقيب عن الآثار في حضارة وادي الرافدين.

وأشارت البغدادي إلى أن "فن الفخار عُرف منذ آلاف السنين، من أيام العصر الحجري، حيث كان الإنسان البدائي يصنع أدواته بيده بدءا من الكؤوس التي يستخدمها للشرب وصولا إلى الأواني التي يستعين بها للأكل".

وتابعت "هذا الفن عرف العديد من التطوّرات التي يمكن تبيّنها من خلال تعاقب الحضارات، من بينها الآشورية والبابلية والسومرية، إذ كل حضارة كانت في حاجة إلى إدخال تعديلات على الأدوات التي خلفتها الحضارة التي قبلها"، مشيرة إلى أن القدامى "استخدموا الأختام الأسطوانية، حيث كانوا في ذاك الوقت يدوّنون عليها تاريخ كل حاكم من خلال نقوش، إذ كان لكل حاكم ختم أسطواني خاص به يصنع خصيصا له".

والفخاريات في العراق تدخل في تفاصيل الحياة اليومية، ومن بينها تنّور الطين الذي يعد إحدى الأدوات السومرية التي لا تزال مستخدمة من قبل عائلات عراقية كثيرة.

من إنجازات الأطفال في دورة الفخار التي تشرف عليها سمية البغدادي

وتحرص البغدادي على نقل مهاراتها إلى الأطفال الذين تعلموا من خلال دوراتها المتعدّدة كيفية صنع الكؤوس وكتابة أسمائهم باللغة المسمارية على ألواح طينية، وهي من أقدم أساليب الكتابة في بلاد ما بين النهرين القديمة.

وقالت أستاذة الفنون العراقية إنها أرادت في ورشها التعليمية تعريف الأطفال بالكتابة المسمارية التي ظهرت في بلاد الرافدين، وإبلاغهم فكرة أن أسلافهم أول من عُرف بالكتابة، بالإضافة إلى تمكّنهم من صنع بعض الأواني.

ووجدت هذه الورش صدى طيبا لدى عدد من الأطفال، ومن بينهم دانا سعد (14 عاما) التي تؤكّد أنها اكتسبت من مشاركتها مهارات جديدة وأصبحت تجد في الفخار أمرا مسليا، وفي الوقت نفسه تعلمت أن هذا الفن يشكل جزءا من التراث العراقي ويسلط الضوء على حياة العراقيين القديمة بكل التفاصيل التي عاشها الأسلاف، بالإضافة إلى أنها تعرّفت على أصدقاء جدد.

أما المشاركة الأخرى الطفلة بلقيس سالم (14 عاما) فتعتبر أن صناعة الفخار بالنسبة إليها تتجاوز بعدها الثقافي إلى مشروع استثماري بدأت فكرته تدور في ذهنها، وقد وجدت في الأمر فرصة لتمضية أوقات فراغها في تعلّم أشياء مفيدة، ترى أنها ستفيدها كثيرا في المستقبل.

وتمثل إقامة ورش الفخار بالنسبة إلى البغدادي تحديا بسبب المعدات غالية الثمن مثل الفرن الضروري لأعمالها الفنية المصنوعة من الطين، وهي لا تكتفي بتعليم الأطفال فن الفخار والخزف، بل شملت ورشها التدريبية جميع الأعمار من الجنسين، وخاصة النساء (مهندسات وطبيبات وطالبات).

وعن ذلك تقول "الدورات الموجعة للكبار أقيمها في الغالب في مشغلي الخاص بي في بيتي، وبالنسبة إلى ورش الأطفال اخترت مكانا جميلا وتراثيا وهو قصر الثقافة والفنون في البصرة الذي هو عبارة عن بيت الشناشيل لأهل البصرة القدماء، وذلك من أجل أن يتعرّف الأطفال على هذه الأماكن الجميلة والأصيلة وكيف كان يعيش أهل المدينة في مثل هذه البيوت التراثية، وما يوجد داخلها من ساحة كبيرة تسمى 'الحوش'، حيث تكون الغرف موزّعة حول الحوش، وهذا التنوّع المكاني يروق للأطفال الحالمين دائما وأبدا".

> الخزافة العراقية آلت على نفسها أن تنقل مهاراتها إلى الأطفال، في محاولة منها للحفاظ على فن الخزف العريق

وتعمل البغدادي على استغلال فرصة العطلة الصيفية في محاولة إفادة الأطفال في مجتمعها، ففي العام 2018 نظمت دورة فنية لهم بهدف إبعادهم قدر المستطاع عن هواتفهم الذكية.

وتقول عن هذه المبادرة التي ترسّخت بمرور الوقت "للأسف أغلب الألعاب المتوفرة في أجهزة الهواتف تحتوي على مواد ضارة، فهي قائمة على القتل والعنف، بالإضافة إلى أنها تضمّ ألفاظا ومفردات غير دقيقة، كما أنها منافية للأخلاق، وكل هذه الأمور من السهل جدا أن تساهم في تعليم الأطفال سلوكيات مشينة. في المقابل نحن نسعى لحملهم على المشاركة في هذه الدورات الزاخرة بمواد متنوعة (تثقيفية، تعليمية، ترفيهية...) ومراعية لأعمارهم ومستوياتهم العلمية".